مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد 10/ العـدد: 01 (2024)، ص 108- 126

المخابرات خلال الحرب البونية الثانية (218-202ق.م)

Intelligence the during the Second Punic War (218-202BC)

تواتي بن تومي [1*]، صبيحة أوكيل[2]
[1] جامعة عمار ثليجي بالأغواط (الجزائر)، t.bentoumi@lagh-univ.dz
[2] جامعة عمار ثليجي بالأغواط (الجزائر)، s.oukil@lagh-univ.dz

تاريخ الاستلام: 2023/06/19 تاريخ النشر: 2024/06/30

ملخص: عرفت المخابرات في الحروب منذ القدم لما لها من دور في تزويد القادة بالمعلومات والأسرار عن أعدائهم، وقد كان لجهاز المخابرات خلال الحرب البونية الثانية (218-202ق.م)، أعظم دورا في تنسيق الأحداث سواء من الطرف القرطاجي أو الروماني، وعليه في هذا المقال سنحاول إبراز دور هذا الجهاز في توجيه الأحداث خلال فترة الحرب كلها، كما نحاول أن نبين كيف اخترقت المخابرات القرطاجية القوات الرومانية وكيف قامت هذه الأخيرة بالرد عليها.

كلمات مفتاحية: المخابرات، الحرب البونية الثانية، القرطاجيين، الرومان.

Abstract: Intelligence agencies have been known in wars since ancient times for their role in providing leaders with information and secrets about their enemies During the Second Punic War (218-202BC), the intelligence agency played a crucial role in coordinating events on both the Carthaginian and Roman sides. In this article, we will try to highlight the role of this agency in directing events throughout the entire war, as well as to demonstrate how Carthaginian intelligence penetrated Roman forces and how the latter reacted.

Keywords: Intelligence, Second Punic War, Carthaginian, Romans.

1. مقدمة:

إنّ الحروب تستعرض تاريخ الإنسان وتظهر عظمة الحضارات والدول، وهذه الحروب لها أسس وعوامل واستراتيجيات معينة يهدف بها القادة للفوز، وفيها يوكلون مهام قد تختلف فيها التضحيات من مهمة لأخرى، ولعل أبرز تلك التضحيات تقاس حسب جسامة الأخطار، وبهذا المقياس نجد أن أخطر تلك المهام توكل لجهاز المخابرات؛ فهو يبحث في الأخبار ويتحرى وقوعها، ولعل فكر المخابرات تحرك باحترافية خلال الحرب

* المؤلف المرسل

البونية الثانية (218-202ق.م)، وقد لعب هذا الجهاز سواء من طرف القرطاجيين أو الرومان دورا عظيم ينم عن دهاء وحنكة استغل فيه الطرفان كل الوسائل للإيقاع ببعضهما البعض، واعتمادا على هذه الأفكار نود توضيح هدف الدراسة الذي يكمن في تسليط الضوء على الدور الذي لعبه جهاز المخابرات ، وتكمن المشكلة التي تحاول هذه الدراسة معالجتها في الإجابة على السؤال التالي: ما هو دور جهاز المخابرات خلال الحرب البونية الثانية (218-202ق.م)؟.

2. المخابرات القرطاجية والرومانية في اسبانيا وخلال رحلة جبال الألب:

تؤدي المخابرات دورا بارزا في المنظومة العسكرية، وعملها غالبا ما يرجّح كفة الانتصار لطرف بفضل المعلومات والتقارير الهامة التي يقدمها رجال هذا الجهاز للقيادة العسكرية العليا، هذه المعلومات تسمح لهؤلاء القادة بوضع خطط واستراتيجيات حربية تساعدهم على تنفيذ مناوراتهم العسكرية (Bath, 1981, page153)، لذا يمكن القول إن المخابرات هي التي تدير الحروب الخفية والمعارك السرية وتحرك توجهاتها، ثم إن القائد الحكيم هو من يستخدم معلومات رجال المخابرات بحكمة لأغراض التجسس على أعدائه، وبذلك يحقق رؤى تسهل عليه الوصول إلى النتائج العظيمة (بولخلوخ، 2014/2015، صفحة 69)، فعندما تولى حنبعل (Hannibal) (أنظر التعليق رقم 01) قيادة الجيش القرطاجي في إسبانيا لم يخف ذلك عن المخابرات الرومانية فقد كانت حريصة على المراقبة الأحداث عن كثب جادة في الحصول على كل معلومة تخص الحضور العسكري قرطاجي في إسبانيا(Freeman, 2022, Page 33) ، ومواقف الأهالي منه، وأيقنت أن الرجل خطير يجمع بين الإقدام والحكمة والشجاعة فأرسلت الكثير من التقارير حوله إلى العاصمة روما (فنطر، 1999، ص 48)، فجهاز المخابرات الروماني الذي لعب دورا في إسبانيا قد اختلف في عصر تأسيسه ولكن الأغلب ذكر أنه تأسس منذ بدايات عصر الجمهورية الرومانية أي سنة 509ق.م، فقد أقام الرومان رجالا لهذا الجهاز وكانت لهم

شبكة من مراكز تتراوح المسافة بين كل مركز وآخر حوالي 06 أميال وبكل محطة حوالي أربعون حصان أو أكثر، يقطع بفضلها رجل المخابرات الرومان يوميا المئات من الأميال لنقل الأخبار والتقارير إلى القادة المكلفين بتلقي هذه الأخبار (السعداوي، 1953، صفحة 31).

أما "حنبعل" فقد شغل منذ توليه قيادة الجيش القرطاجي واحد من أعظم الأجهزة المخباراتية في العالم القديم آنذاك، فقد كان أستاذا فيها يبعث بالعيون والآذان لترصد له تحركات الأقوام الإيطالية، وكان له أتباع وجواسيس حتى في صفوف أعدائه بمعنى أن مخابراته كانت تخترق جيوش الرومان وحتى القبائل التي لم تدخل في طاعته (السيد، 1957، صفحة 75)، وقال عنه المؤرخ "مومسن" (Mommsen): "**أن "حنبعل" له ميزات خاصة بحيث يدرس عادات عدوه قبل كل معركة وله جواسيس يرسلهم حتى لروما ليزودوه بمعلومات عنها وعن مشاريعها"** (Mommsen, 1865, page 125)، كما قام "حنبعل" في تقدمه نحو روما بتمهيد طريق النصر لجيشه بفضل جهازه المخابراتي (شوقي، صفحة 295)، فجمع له المعلومات عن مختلف الاستعدادات وتحركات الجيش الروماني وأنصاره وأحوال حلفائه وحتى أنواع المحاصيل التي يعتمدونها في تموين الحملات، ثم وضع خارطة طريق حربية على ضوء ما توفر له من معلومات وتقارير من رجال المخابرات (جوليان، 2011، صفحة 86)، فهذا الجهاز كان يقدم له المعلومات الجاهزة خاصة من منطقة وادي نهر البو(Po) وسهول الألب السفلى(Alpes) (كاشف، د.ت، صفحة 14)، فـ"حنبعل" كما هو معلوم قد سير الكثير من المشاريع للبناء والمعاضدة للتجارة في إسبانيا وأعار هذه الشؤون الكثير من الاهتمامات، وإلى جانب هذا فقد راح في خضم ذهنه يرتاد شواطئ البحار التي حوله ويطالع عن الرحلات البحرية القديمة وأعظم اكتشافاتها، ولعله كان قد طالع المؤلف المفقود الذي وصف في الوسائل والطرق عن الموارد الطبيعية وارتقائها العلمي وكان "حنبعل" ينصت للجواسيس الذين يجوبون الأرض ومنهم من يفضون إليه ما صادفهم على السواحل الأخرى كجنوب إيطاليا وبلدان شرق المتوسط

والجزر التي كانت أماكن استراحة لهم، وكانت نزعة حب الاستطلاع عنده تبدوا دائما متأججة، فهو يسأل: ماذا كانت العادات خارج إسبانيا وأي محاصيل يجمعها سكان إيطاليا وما جاورها وما هي مواعيد جمعها؟ أي تقاليد كانت سائدة وأية معادن يجمعونها وكيف كان القوم يطرقونها لصناعتها وما طريقة صناعتهم لها؟

كان "حنبعل" يجمع في ذهنه صورة من الحقائق عن البحر المتوسط، كما كانت مخابراته تخبره بأحوال الأرض والطقس، وقد امتد حب التجسس عند "حنبعل" فاستطلع حتى الأقوام التي كانت تسكن إيطاليا وجمع عنهم الكثير من المعلومات (لام، 1962، صفحة 41)، استخدم "حنبعل" المخابرات استخداما أصيلا في أغلب تحركاته وإدراكا منه للأهمية الاقتصاد في الحرب فقد وجه جزءا من نشاط رجال مخابراته للأمور الاقتصادية، فذكر أنه عندما عزم على غزو روما حرّك رجال المخابرات للحصول على معلومات عن مدى خصوبة الأرض ومعنويات الأهالي وحالتهم المعيشية والنفسية (سلامة، 1990، صفحة 19)، فقد كان "حنبعل" ولوعا بمفاجأة أعدائه وإشاعة الفزع بينهم معتمدا في ذلك على منظومة المخابرات (العسلي، 1980، صفحة 67)، وعندما عزم "حنبعل" على غزوا روما اختار طريق البر وكان خيار صعب، ولكن ما ساعده هو وجود المخابرات التي كانت على تماس واتصال مع القبائل التي يحاذيها في طريقه كما كان لهم عمل آخر وهو كشف الطرق والممرات أيضا، وقد كان يحتاط لأي أمر قد يقع (صفا، 1987، صفحة 103)، ومن جهة أخرى كانت المخابرات الرومانية أيضا على قدم وساق خاصة عندما تحرك "حنبعل" باتجاه الأراضي الإيطالية وقد كان لبعض القبائل دورا مخابراتيا من خلال تزويدهم للرومان بأخبار والتحركات القوات القرطاجية (Nje & N.B, 1995, page 90).

وعليه كشفت المخابرات الرومانية للقنصل "بيبليوس كورنيليوس سكيبيو الأب" (Publius Cornelius Scipion)، الذي كلف من طرف مجلس الشيوخ الروماني لقيادة

الحرب، قد كشفت له المكان الذي عسكر فيه "حنبعل" واشتبكت مع رجال المخابرات القرطاجية، وأعطى هذا إعلام لكل الطرفين بوجود الآخر فاتجه "سكيبيو" إلى ذلك المكان، ولكن "حنبعل" كان قد رحل وقد أعلمت المخابرات الرومانية "سكيبيو" بصفة أكيدة أن "حنبعل" قد عبر بالقرب من جبال "البيرينيه" (Pyrénées) (أنظر التعليق رقم02) وفي نفس الوقت مخابرات "حنبعل" (طراد، 1997، صفحة 137) اخبروه بقرب الرومان فتغلغل نحو الشمال (أكصيل، 2007، صفحة 135)، وعندما وصل "حنبعل" إلى جبال الألب كان من الممكن أن تحدث الكارثة فقد كان السكان يختبئون في الأودية المحيطة به ويندفعوا إلى الأسفل باتجاه قواته، فطلب من قواته أن تتوقف وحرك مخابراته لأجل رسم خارطة الطريق فأخبروه أن التقدم مستحيل وجاءوه بخبر أن المكان الذي يهاجمه منه السكان سيكون خاليا في الليل لكونهم يعودون إلى منازلهم فعمل بهذا، وقام في الليل باحتلال أماكنهم وحصّن جيشه وأكمل طريقه (بونابارت، د.ت، صفحة 16)، ومن المعلوم أن "حنبعل" عندما عبر هذه الجبال حل مباشرة بالأراضي الإيطالية .

3. المخابرات القرطاجية والرومانية في ايطاليا:

دخل "حنبعل" الأراضي الإيطالية منهك القوى وبفعل المساعدات التي قدمها أهالي واد البو، استطاعت جيوش "حنبعل" أن تسترد أنفاسها، وأن تستمتع بقسط من الراحة لم تكن المعارك قد أنهكتهم بعد، ولم تكن التموينات هي العامل الحاسم في الظفر بالنجاح، بل النشاط المخابرات قد لعب دورا بارزا في نجاحه، فمن خلال هذا العامل حقّق "حنبعل" المفاجأة الحاسمة في دخوله لروما (وولفغانغ، د.ت، صفحة 45)، وكانت روما قد حركت مخابراتها في إسبانيا وبلاد الغال (Gauls) (أنظر التعليق رقم 03) وذلك بغية ربط تحالفاتهم مع روما بيد أن الغاليين أخبروا روما، أنهم لا يرون لهم مصلحة في أن يجعلوا من بلادهم ميدان حرب يتقاتل فيه القرطاجيين والرومان، ووفق المعلومات التي حصل عليها الرومان، فإن مخابرات "حنبعل" كانت قد سبقت المخابرات الرومانية بفترة طويلة ونجحوا في التحالف مع الغاليين، وقد توصل جهاز المخابرات الروماني إلى

معلومات تفيد بأن "حنبعل" ومخابراته قد قدمت الكثير من رشاوى من الفضة وذهب والأموال الى قادة القبائل الغالية(Prevas, 2001, page 50) .

وقد كان أيضا لهذا الجهاز دورا عظيما من ناحية الفوز بالمعارك، ولم يقتصر عمله فقط على ربط الإتصالات وعقد التحالفات مع القبائل التي كانت في إسبانيا أو خلال رحلة الألب، ويمكن أن نلمس دور هذا الجهاز خاصة في معارك "حنبعل" الكبرى فقد بدأ العمل الجاد مع أول وهلة في معركة "تسينوس" (Tessin) في سنة 218ق.م بالأراضي الإيطالية، فقد عرف "حنبعل" من تقارير المخابرات أن الرومان انسحبوا إلى الخنادق التي تحمي المعسكر ووفقا لهذه التقارير المخابراتية (Rosenstein, 2021, page 216).

بنى "حنبعل" تحركاته الكبرى لكسب الجولة الأولى إذا تيسر له دراسة المميزات فرق الجيش الرومانية، ومن المحتمل أن رئيس جهاز المخابرات عند "حنبعل" وهو رجل يسمى "كارتالو" (Carthalo) كان قد أطلعه على التفاصيل وفسّر له الأوامر الصادرة بالبوق وعلى رغم الاشتباك الذي حدث بين وحدات الفرسان المكلفة من قبل الطرفين باستطلاع (لام، 1962، صفحة 93)، فقد نجح "حنبعل" في تفادي خوض معركة حاسمة مع قوات روما، ويكمن سر هذا النجاح في أن "حنبعل" علم مسبقا بنوايا الجيش الروماني بفضل جهاز مخابراته، ونجح "حنبعل" كم من المرة في التمويه قادة الجيش الروماني من خلال مراوغات عسكرية مختلفة (صفا، 1987، صفحة 130)، وليس ثمة شك في أن "حنبعل" كان يمتلك مخابرات ترسل له التقارير الدقيقة من داخل المعسكرات الرومانية (لام، 1962، صفحة 93).

إذن بعد عبور "حنبعل" لنهر تسينوس تحرك غربا صاعدا على الضفة اليسرى لنهر البو وكان حينها القنصل "سكيبيو" ينتظر زميله "سيمبرونيوس لونجوس" Sempronius (Longus) (صفا، 1987، صفحة 130) لأن سكيبو قد رجع إلى الأراضي الإيطالية بعدما أعلمته مخابراته بأن "حنبعل" توجه إليها عن طريق البر، وعليه فقد تحرك القنصل

لونجوس لملاقاة "حنبعل" فتحركت المخابرات القرطاجية واستسقوا أخباره من الغاليين المتواجدين في المعسكر الروماني أخبروه بشخصية هذا القنصل أنه غير متريث وأن المواجهة معه وشيكة(Mirbahmanyar, page 8) ، وبقوات يفوق عددها 18 ألف روماني و20 ألف حليف و40 ألف فارس، وبناءً على هذه المعطيات خطط "حنبعل" لمعركة تيربيا (Trebbia) 218ق.م (طويل، كفاح روما و قرطاجة، د.ت، صفحة 120)،تم اختيار جواسيس من الغال لجمع معلومات استخباراتية التي يحتاجها وهو الخيار الأكثر أمانا لأن الغاليين كانوا يخدمون في كلا المعسكرين وعندما عاد هؤلاء الجواسيس بالأخبار أن الرومان كانوا مستعدين لهذه المعركة، شرع في البحث عن مكان لكمين (Livry, 2006, page 54) وقضى على جيش بأكمله إلا بضعه، وعندما ظهر النصر لـ"حنبعل" هرب الكثير في جنح الليل من القادة الغاليين من المعسكر الروماني نحو معسكر "حنبعل" وأخذوا معهم رؤوس بعض القادة الرومان لتكون دليلا لهم على ولائهم للقرطاجيين و"حنبعل" بالخصوص (طويل، د.ت، صفحة 120).

ويمكن قراءة هذا الموقف في ثاني معركة على الأراضي الإيطالية أن المخابرات القرطاجية قد اخترقت الجيش الروماني وربما الكثير من الأخبار والأحوال والشائعات كانوا هم منبعها، ثم إنهم قبل انتهاء المعركة قاموا بانقلاب على الجيش الروماني أي أنهم انتظروا الإشارة وأخذوا الرؤوس كدليل على القيام بالعمل الموكل لهم ثم هربوا في الليل أي أن العمل مدبر، كما يمكن قراءتها في سياق أن المخابرات الرومانية لم تكن متيقظة لفكرة الاختراقات، وأن الكثير من الغالين في الجيش الروماني يعملون لصالح القرطاجيين و"حنبعل".

ومع حلول عام 217ق.م، كان الوضع مشوشا، فقد كان "حنبعل" يتقدم في شبه الجزيرة الإيطالية نحو روما، لذلك تم استدعاء جيشين رومانيين تحت قيادة كل القائد "سرفليوس جيمينوس"(Gnaeus.Geminius) والقائد "كايوس فلامينيوس نيبوس" (Gnaeus FlaminiusNebos)، ومن جديد فعل "حنبعل" ما هو غير متوقع فقد عبر

المستنقعات ليظهر فجأة في المواقع الخلفية لجيش "فلامينيوس نيبوس" عند بحيرة تراسيمين (Trasiméne) (دورتشميد، 2021، صفحة 206)، وعلم من مخابراته أن المعسكر الروماني تمركز حول الجدران المحيطة بمنطقة اريتوم (Aritome)، فذهب حينها للعمل بكل جهده لمعرفة خطط القنصل وطريقة تفكيره وأي المسالك سيسلكها لتزويد جيشه بالمؤونة (Mirbahmanyar, page 12)، وبعد الحرائق التي قام بها "حنبعل" في أتروريا تأكد من مخابراته أن "فلامينوس" قد تحرك في أعتابه بقوات عظمى فقاطعهم قائلا: **"ما جدوى هذا الترديد الأجوف للأرقام؟ هيئوا لي نظرة واحدة أفحص بها عقل فلامينوس"** (لام، 1962، صفحة 113).

وبدأ "حنبعل" يبحث عن ميدان لمعركة ترازمين سنة 217ق.م (صفا،1987، صفحة 137)، وعليه ضحى القنصل "فلامينيوس" بالمحافظة على أمان قواته من أجل الوصول بسرعة، وارتكب خطأ عندما فشل في تحريك مخابراته لتحديد موقع عدوه وقد كان ذلك خيارا قاتلا، وقد دخل في أماكن كان عرضها يبلغ بالكاد 100 قدم، يمر ما بين مياه عميقة وجرف شديد الانحدار، وبناءً على تحركات "فلامينوس" كانت المخابرات "حنبعل" قد استكشفت تحركاته وأطلعت "حنبعل" على وضعيته وأي مسلك يتخذه، فوضع "حنبعل" قوة مانعة عند مخرج الممر الضيق، كان "ماجو" (Mago) شقيق "حنبعل" ينتظر مع مجموعة من الفرسان في غابة كثيفة على الطريق الذي سيمر منه الجيش الروماني، فيما وضع "كارتالو" قائد المخابرات عند مدخل الممر الضيق، كان عليه أن يغلق المدخل بمجرد مرور الرومان، مما يجعل تراجعهم مستحيلا وحدثت الكارثة المعروفة، هزيمة الجيش الروماني إلا القلة القليلة قد هربت (دورتشميد، 2021، صفحة 206).

ثم كانت تحركات جيش "حنبعل" فوق جبال الابنين وقد وصل إلى نهر الارنو (Arno)، حيث كان ينتظره باعة متجولين غريبو الهيئة يحملون بخورا وعاجا وكان هؤلاء جواسيس(L. O'connell, 2005, page 191) التابعين لرئيس المخابرات "كارتالو" جاؤوا إلى

"حنبعل" يبيعونه سلعهم علانية ويهمسون بالأخبار باللغة الفينيقية فأخبروه أن الوديان التي أمامه خصبة المرعى وأن سكانها مسالمون ولكن بالمرتفعات الشرقية، كان بين "حنبعل" وروما مسافة ثلاثة أيام فقط لكنه إتجه شرقا نحو البحر الأدرياتيكي (لام، 1962، صفحة 109)، بعثت المخابرات إلى "حنبعل" تقرير مفاده أن القنصل الروماني "فابيوس" (Fabius) (أنظر التعليق رقم 04) وزميله القنصل "مينسيوس" (Minisius) قد تسلما مهام الجيش الروماني وأن بينهما خلاف، لأن الجيش قسم بينهما وكان "مينسيوس" شخصية غير متريثة، وحدث أن سار في أعقاب مجموعة من الفرسان القرطاجيين فنصب له قائد المخابرات "كارثالو" كمينا، وسحق جل قواته، أراد "فابيوس" أن ينقذهم لكنه فشل فأمر "مينسيوس" قواته بالاندماج تحت راية "فابيوس" (Mirbahmanyar, page 18). هذا الفعل يثبت أن مخابرات "حنبعل" وعلى رأسها "كارثالو" كانت مكلفة أيضا بنصب الكمائن وربما حتى بالإغتيالات، وهذا الفعل بالذات يبين أن "كارثالو" ورجاله كانوا يستسقون أخبار الرومان لذلك لاحقهم مينسيوس، ونصبوا له كمينا كاد ان يقتل فيه، ويمكن أن تقرأ في سياق إستدراج للقادة أيضا.

وفي نفس الوقت لم تكن المخابرات الرومانية تنتظر الفعل لتقوم بالرد عليه بل بالعكس كان لها موقفها وأسسها فقد تقدمت هذه المخابرات من خلال الاحتياطات التي اتخذوها عام 208ق.م عندما قتل القنصل "مارسليوس" (Marcellus) (أنظر التعليق رقم 05) في فخ نصبه له "حنبعل" عندما كان رفقة مخابراته للاستطلاع واستولى هذا الأخير على ختم الرسمي للقنصل، وعلمت المخابرات الرومانية قدرة "حنبعل" في استخدام الأحرف المزورة فقد كان يتصرف بسرعة مذهلة، وعلى إثر هذا تحرك القنصل "كريسبينوس" (Crispinos) خوفًا من أن يكون "حنبعل" يقدم بعض الأمور للرومان بفضل ذلك الختم ويقضي عليهم أو يقيم الفتنة بين الرومان وحلفائهم، فأرسل القنصل "كريسبينوس" رسالة تفيد بأن زميله قد قُتل وأن الختم بحوزة "حنبعل"، أي أنهم لا ينبغي أن يثقوا بأي رسائل مكتوبة باسم "مارسيلوس"، وقد قام "حنبعل" بهذا الأمر فعلا

فقد أرسل الرسالة المختومة تطلب من بعض المواطنين استقبال القنصل الروماني (وهو قرطاجي في الأصل)، وقد تم السماح له بدخول المدينة، وعندما أغلقت البوابات تم ذبحه من طرف الرومان لكون التحذيرات قد وصلت قبل وصولهم (Dvornik, 1893, page 64).

والجهة الأخرى في إسبانيا بالضبط، عندما تولى "سكيبيو الإبن" –أنظر التعليق رقم 06- أو مايعرف بـ"سكيبيو الإفريقي" (Scipion Africanus) قيادة الجيش هناك سنة 211ق.م كانت المخابرات الرومانية نشطة وكان يستوثق هذا الأخير منها أخبار القوات القرطاجية وأحوال القائد ماجو، حتى علم منهم أنه قضى فصل الشتاء بالقرب من عمود هرقل بينما انتظر شقيقه "هاسدروبال" (Hasdrubal) وعلم أن المسافة بينهما حوالي عشرة أيام، ومنها بدأ في التخطيط لحروبه في إسبانيا بناءا على الكثير من التقارير المخابراتية (لام، 1962، صفحة 188) ، وبعد أن خرج "هاسدروبال" من إسبانيا قضى الشتاء في جنوب بلاد الغال 207ق.م (أكصيل، 2007، صفحة 152)، كان على رأس الجيش الروماني قائدان واحد يسمى "كلوديوس" (Claudius) في مواجهة "حنبعل" و"ليفيوس" (Livius) في مواجهة "هاسدروبال"، وبينما كان "كلوديوس" في الجنوب يجابه "حنبعل" رصدت المخابرات الرومانية رسالة إلى "حنبعل" يضرب له فيها "هاسدروبال" موعدا محددا فيه المكان والزمان يخبر فيها أخاه "حنبعل" أن يتجنب الاشتباك مع "كلوديوس" حتى يلتقيا ويهاجما روما معا، فترك "كلوديوس" موقعه سرا وتوجه إلى "ليفيوس" الذي كان في مواجهة "هاسدروبال" وفي الصباح هاجمه الرومانيان وأراد الانسحاب ولكنه لم ينجح فقتل رفقة الكثير من جيشه (الجبوري، 2012، صفحة 216).

ويفهم من أن المخابرات القرطاجية قد فشلت في توصيل هذه الرسالة التي كشف أمرها في الطريق، هل الرسالة كشفت صدفة؟ أم أن جيش "هاسدروبال" مخترق؟ أم أن المخابرات الرومانية كانت على يقظة تامة تتبع الكبيرة والصغيرة؟ وقد ضل "حنبعل" على نهر "أفيدوس" (Afidus) ينتظر رسالة التي لم تصله ابدا، ولأول مرة فشلت مخابراته في

اطلاعه على الحقيقة (لام، 1962، صفحة 217)، ومع ذلك بقي "حنبعل" معتمدا في حروبه على مخابراته وأثناء غزو جزيرة صقلية تعذر عليه الاستيلاء عليها رغم الحصار الطويل، وأراد أن يعرف سر قوة المدينة فأرسل أحد جنوده فدخل المدينة وادعى أنه جندي مرتزق وعرض خدماته على حاكم المدينة وبقي يتجول فيها، ويدرس تحصيناتها وخطط الدفاع فيها (كاشف، د.ت، صفحة 14)، وكان يرسل إشارات إلى "حنبعل" عن طريق الدخان المتصاعد من نار يوقدها لطهو طعامه فوق تل المدينة دون أن يفطن إليه أحد (شوقي، صفحة 249).

هذه التحركات للمخابرات من كلا الطرفين لم تتوقف عند خروج "حنبعل" من إيطاليا وإنما كان لها أدوارا أخرى في هيكلة الصراع ونقل الأخبار والتقارير وحتى كشف الإغتيالات التي كان يمكن أن تحدث.

4. المخابرات القرطاجية والرومانية في افريقيا:

لم تكن إفريقيا خلال الحرب البونية الثانية بمنئ عن تحركات المخابرات القرطاجية ولا الرومانية، فقد كان لها دورا في التأثير على الأحداث فحين ربط الرومان تحالفهم مع "سيفاكس" (Syphax) (203ق.م) (أنظر التعليق رقم 07) أرسلوا ثلاثة من قادتهم سنة 211ق.م فقبلهم وطلب منهم أن يبقى احدهم ليدرب له الجيش على الطريقة الرومانية فبقي رجلا يدعى "ستاتوريوس" (Statorius) (Tite, 48،01) ، غير أن السؤال هو: هل بالفعل المهمة التي بقي من أجلها هي تدريب الجيش؟ أم رجل مخابرات يسجل تقارير عن جيش حليفهم الجديد؟ لا يمكن قراءة هذا الموقف سوى ان الرومان قد مدوا تحركات مخابراتهم في كل مكان لسيطرة على الأحداث. وعلى إثر هذه التحركات المخابراتية الرومانية لم تكن المخابرات القرطاجية مكتفة الأيادي بل تحركت لتحالف "سيفاكس" وتخترق مملكته على العموم فقاموا بتزويجه بفتاة تسمى "سوفونيزبة" (Saphonisbe) (أنظر التعليق رقم 08) لأنه جرى استخدام النساء في المخابرات خلال هذه الحرب وها هي تمد

قرطاجة بأخبار "سيفاكس" للوصول إلى تحركات حليفهم أيضا، وقد نجحت في فهم طبيعة هذه مملكة (محمود، 2010، صفحة 9).

ولربما يمكن قراءة زواج "سيفاكس" بـ"سوفونيزبة" كعمل مخابراتي عملت به قرطاجة للاستخبار حول مملكة المازيسيل، وعندما وجدت روما أن حليفها قد اخترق من طرف المخابرات الرومانية عملت كذلك على استخدام حليفها "ماسينيسا" (Massinisa) (238-148ق.م) (أنظر التعليق رقم 09) كمخابراتي يقدم التقارير عن أعدائهم (Hendrikus, 2020, page 46) ففي سنة 205ق.م كان يراقب الوضع والتحركات القرطاجية كمخابراتي (عقون، 2010، صفحة 93) ، وأرسل "سكيبيو" حملة استطلاعية في نفس العام إلى سواحل إفريقيا وقد نجحت في الاتصال بـ"ماسينيسا" الذي أخبرهم أن "سيفاكس" مشغول في منازعات مع السكان المحليين وبناء على هذا التقرير قرّر سكيبيو التوجه لاحتلال قرطاجة في عام 204ق.م بعدما أخذ موافقة مجلس الشيوخ طبعا (Tite, 18).

وعندما حلّ "سكيبيو" بالأراضي الإفريقية دخل في مفاوضات مع "سيفاكس" محاولا أن يخترق بمخابراته أعمال المخابرات القرطاجية، وعمل على إطالة هذه المفاوضات بغرض الحد من حماس ويقظة الجيش القرطاجي وحليفه "سيفاكس"، وعمل على إطالتها أيضا لدراسة أحوال خصمه والتجسس على معسكره، فقد لجأ إلى إرسال (جندي، 2002،صفحة 381) قائده "لاليوس" (Lalius) لهذه المهمة وبعث معه بعض الجواسيس متخفين في ثياب رقيق، وفور وصوله إلى معسكر "سيفاكس" عرف حراس هذا الأخير أحد رجال المخابرات لكونه قد التقوا به سنة 206ق.م في "سيغا" (Siga)، لكن "لاليوس" قام بضربه على خده إذ أشار أنه احد العبيد وارتدى زي الضباط الرومان (نصر، د.ت، صفحة 20).

قام الوفد بالتفاوض وقام رجال المخابرات المتنكرين في زي الخدم بجمع المعلومات عن جميع المنشآت الحربية، ثم أشار سكيبيو إلى رجاله بقطع المفاوضات القرطاجيين بحجة أنها اصطدمت بمصالح روما (جندي، 2002، صفحة 381) هذا الأمر جعل المؤرخ "بوليبيوس" (أنظر التعليق رقم 10) (Polybius) يحكم على هذا الإنجاز الذي حققه القائد "سكيبيو" بفضل الخطة المحكمة التي انتهجها معتمدا على تقارير مخابراته بقوله: **"إنه أهم عمل قام به "سكيبيو" منذ أن نزل بأرض إفريقيا"** (Polybe, 1970,XIV, 1.6-8)، وفي نفس الوقت كان "ماسينيسا" يعمل عمل المخابرات فقد تحصل على الكثير من المعلومات وبناءً على ما وصله من تقارير وضع أمامهم خطته التي مفادها أن تتحرك القوات الرومانية في الليل بقيادة "لاليوس" و"ماسينيسا" وأن تشعل النار في معسكر "سيفاكس" (Tite,IV,1.8)، وبفضل جهاز المخابرات تمكن "سكيبيو" و"ماسينيسا" من دحر القرطاجيين و"سيفاكس" في معركة السهول الكبرى 203ق.م أو ما تعرف بمعركة سوق كرينيس (Souk Kreinis)، وبفضل المخابرات التي تم إرسالهم لإجراء محادثات تفاوض خلال شتاء عام 204ق.م، والذين أخبروه بأن معسكرات الأعداء بنيت بالخشب، فاستغل "سكيبيو" فرصة غفلة الحراس وأمر جنوده بإضرام النار فيها (فرحاتي، 2007، صفحة 72).

عند رجوع جيش "حنبعل" من إيطاليا إلى إفريقيا حرك مخابراته إلى معسكر "سكيبيو" لكنهم وقعوا في الفخ وقبض عليهم، ومع ذلك سمح لهم بالدخول إلى المعسكر الروماني ثم رجوع إلى "حنبعل" لإبلاغه عما رأوه وتم معاملتهم بطريقة حسنة، يرى بعض المؤرخين أن "سكيبيو" سمح لرجال مخابرات "حنبعل" بالعودة بسبب تأخر انضمام "ماسينيسا" أي بأن تصله معلومات خاطئة عن تعداد الجيش (Mirbahmanyar, page 201) أو ربما كان "سكيبيو" يلعب على العامل النفسي لمخابرات "حنبعل" فالأكيد أن هؤلاء الرجال عند إطلاق سراحهم سيثيرون الفوضى في نفوس الجنود التي تم تجنيدهم حديثا من قبل "حنبعل"، فيحدث الإنهزام النفسي قبل بدئ المعاركة.

أكتسب "سكيبيو" شهرته من كونه الوحيد الذي انتصر على "حنبعل" في زاما 202ق.م وهو مدين بذلك الانتصار لمخابراته، وكانت مشكلته تنحصر في مواجهة الفيلة التي يستخدمها "حنبعل" كسلاح كاسح، ولكي يتغلب "سكيبيو" عليها حرّك مخابراته إلى معسكر "حنبعل"، حيث اختلطوا بالمكلف بترويض الفيلة وعلموا منه أن نقطة ضعفها تكمن في شدة انزعاجها وفزعها إن سمعت صوتا مدويا، ولما إلتقى الجيشان أحدث جيش "سكيبيو" ضجة بالطبول، فساد الارتباك بين الفيلة وفقد جنود "حنبعل" السيطرة عليها (كاشف، د.ت، صفحة 14)، وكان هذا نتاج تقرير المخابرات الرومانية على الفيلة في معرفة نقطة ضعفها.

وعلى الرغم من التقدم الذي أحرزه الرومان خلال الحرب البونية الثانية في تقدير الجوسسة وتنظيمها، إلا أنهم ظلوا أدنى من "حنبعل" لفترة طويلة، فهو أثبت تفوقه في هذا المجال حتى وفاته، فعندما عاد إلى إفريقيا بعد حملته على إيطاليا، حققت قرطاجة ازدهارًا تحت قيادته على الرغم من الظروف الصعبة التي كانت تمر بها، فانزعج الرومان من ذلك وطالبوا بتسليمه، لكن "حنبعل" قام بالهرب إلى شرق البحر المتوسط وهذا يبرز مدى تحرك مخابراته لتزويده بكل المعلومات التي تحاك ضده لأجل إغتياله (Dvornik, 1893, page 66)، فقد كان لهذا الجهاز دورا في تسيير المعارك ومن إنجازاته أنه قلب موازين القوى لصالح الرومان، وطبعا لا يمكن القول ان الفضل في فوز الرومان أو فوز "حنبعل" يقف عند هذه الجهاز فقط بل كان للكثير من العوامل الأخرى أدوارا أساسية، إلا ان جهاز المخابرات كان له دورا كبيرا ولكنه يغيب في الكثير من الكتابات وأغلب الدراسة التي تناولت الحروب البونية لا تعطيه حقه الكامل.

5. خاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع المخبارات خلال الحرب البونية الثانية (218-202 ق.م) توصلنا إلى جملة من النتائج ندرجها في النقاط التالية:

-عرفت الحرب البونية الثانية (218-202ق.م)، نشاطا مخابراتيا اعتمد عليه القرطاجيين من جهة والرومانيين من جهة أخرى.

-أدت مخابرات "حنبعل" دورا بارزا في إسبانيا وحتى في رحلته إلى جبال الألب، وقد سهلت عليه ربح الكثير من المعارك على الأراضي الإيطالية.

-كان نشاط المخابرات الرومانية حاضر في فهم استراتيجية "حنبعل" مما سمح لهم بالتغلب عليه في معركة زاما.

-كانت المخابرات القرطاجية في السنوات الأولى من الحرب البونية الثانية أنشط من المخابرات الرومانية، وأغلب المعارك التي نجح فيها "حنبعل" بنيت على تقارير هذا الجهاز.

-أدى تراجع نشاط مخابرات "حنبعل" في إيطاليا إلى خسارة المعارك في إفريقيا، كما أن الرومان تحركوا بقوة في هذه المنطقة، فقد كانت آخر المعركة بين "حنبعل" و"سكيبيو" مبنية على التقارير التي تصله من المخابرات.

-إن دور المخابرات في الحرب البونية الثانية مغيب في أغلب الكتابات التاريخية، وان تم الإشارة إلى عملهم فهو قليل نظرا لما قدموه.

التعليقات والشروحات:

1-**حنبعل**: قائد قرطاجي وابن هملكار برقة ينتمي لأسرة برقة التي لعبت دورا كبير في الصراع الروماني القرطاجي هو من أبرز الشخصيات التي عرفها التاريخ قاد حملته على إيطاليا وكاد أن يودي بحياتها لولا بعض الظروف خسر معركة في زاما 202ق.م وتوفي بآسيا الصغرى.أنظر: (بلعيد، 2012/2013، صفحة 31).

2-**جبال البرينيه:** وهي سلسلة من الجبال تفصل بين فرنسا وإسبانيا يسمسها العرب بجبال (جبال البرانت) مسالكها وعرة جدا فيها ممرين فقط إما من أقصى الشرق أو من أقصى الغرب (مرزوق، 2017، الصفحة 87).

3-**بلاد الغال**: يقصد بها دولة فرنسا حاليا، سكنتها أقوام كانت بالدرجة الأولى تحالف "حنبعل" لما كان لها من مشادات مع الرومان (Prevas, 2010 , page 93)

4-**فابيوس**: قنصل روماني عرف بواحدة من أعظم الإستراتيجيات الحربية تعتمد على الإقتراب غير المباشر من العدو فهي لم تقتصر على تجنب المعارك لكسب الوقت، ولكنها كانت تقاس بتأثيرها على قوة العدو وبدرجة أكثر من ذلك على حلفائه المحتملين. (هارت، 1931، الصفحة 21).

5-**مارسيليوس**: قنصل روماني كان قد توجه إلى بلاد الإغريق ليقادة الحرب سنة 215ق.م، وتوجه سنة 213ق.م لجزيرة صقلية وقاد حرب أخرى هناك وقتل سنة 208ق.م بعدما نصب له "حنبعل" فخ. (Goldsworthy, 2000, page 286) .

6-**سكيبيو**: أو سيبون ويعرف بشيبون لقب بالإفريقي قائد روماني ولد سنة 235ق.م عين عام 211ق.م قنصل في إسبانيا واحتل قرطاجنة عام 209ق.م، وفي عام 202ق.م، أحرز نصرا حاسما في معركة زاما وانتهت على إثرها الحرب البونية الثانية. (هنري،1 991.الصفحة 477).

7-**سيفاكس**: ملك قبائل المازيسيل من المرجّح أنه ولد في الفترة ما بين (260-250ق.م) كان له دورا في الحرب البونية الثانية حينما أبرم تحالفات وإنقلابات بين القوى المتصارعة قرطاجة وروما (جمال مسرحي،2019، الصفحة 173).

8-**سفونزيبة**: فتاة ذات أصول قرطاجية ذكرت الكتابات التاريخية أنها إبنة صدربعل جيسكون تزوجت سيفاكس وأختلف في سنة زواجها (محمد البشير شنيتي، (د.ت)، الصفحة 160).

9-**ماسينيسا**: كان أبوه غايا حليفا لقرطاجة فبعثه ليساعدها في إسبانيا سنة 212ق.م، وبقي إلى سنة 206ق.م، رجع إلى إفريقيا بعد وفاة أبيه سنة 207ق.م، قام بتوحيد نوميديا سنة 203ق.م وبقي ملكا عليها إلى أن توفي 148ق.م. (Lacroix, Page 18-21).

10-**بوليبيوس**: ولد حوالي سنة 200ق.م بجنوب اليونان واعتبر تاريخه المكتبة باليونانية أوثق مصدر عن الجمهورية الرومانية منذ الحرب البونيقية الأولى حتى منتصف القرن الثاني شغل هذا المؤرخ مناصب سياسية زار نوميديا وبلاد الغال وسواحل موريطانيا مات متأثرا بجروحه بعد أن سقط من على حصانه سنة 120ق.م أنظر: (علي، د.ت، صفحة 56)

المراجع:

-أحمد علي عبد اللطيف. (د.ت). *التاريخ الروماني* (المجلد ط1). القاهرة: دار النهضة العربي.

-أسد الله صفا محمد. (1987). *هانيبال*. بيروت: دار النفائس.

-بلعيد حسن. (2012/2013). *حنبعل والحروب البونيقية الثانية 218ق.م-201ق.م*. مذكرة ماجستير . جامعة الجزائر.

-بول-وخ محمد. (2014/2015). *التنظيم العسكري لنوميديا من 220-46ق.م.* مذكرة ماجستير . جامعة الجزائر.

-بونبارت نابليون. (د.ت). *مبادئ الحرب.* (هاشم بطل، المترجمون) الجيزة: مكتبة ناشر.

-الجبوري خالد محمد عباس. (2012). *الاستطلاع ودوره في التاريخ العربي الإسلامي لغاية 23هـ دراسة تاريخية* (المجلد ط1). الأردن: الاكادميون للنشر والتوزيع.

-جندي ابراهيم. (2002). *تاريخ الرومان من العصور الحجرية إلى موقعة زاما 202ق.م.* مصر: جامعة عين الشمس.

-جوليان شارل أندري. (2011). *تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: البشير سلامة، ج2، مؤسسة توالت الثقافية، (د.م.ن)، 2011*، (الإصدار ج2). (البشير سلامة، المترجمون) د.م.ن: مؤسسة توالت الثقافية.

-دورتشميد ايريك. (2021). *حروب وأساطير من معركة مجدو إلى سقوط روما دور صناع الأساطير في تغيير العالم القديم* (المجلد ط1). (أحمد الزبيدي، المترجمون) بيروت: دار المدى.

-السعداوي نظير حسين. (1953). *نظام البريد في الدولة الاسلامية.* الفجالة: دار مصر للطباعة.

-سلامة محمد الهرفي. (1990). *المخابرات في الدولة الاسلامية.* الرياض: المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب.

-السيد فرج. (1957). *القيادة والقادة العظام* (المجلد ط4). د.م.ن: دار الفكر العربي.

-شنيتي محمد بشير. (د.ت). *دراسات في تاريخ والآثار القديمة بالجزائر وبلاد المغرب.* الجزائر. كنوز الحكمة.

-شوقي عبد الكريم. (د.ت). *المخابرات مفهومها تطورها من النشأة إلى العهد الإسلامي. دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، ع2.*

-طراد نجيب ابراهيم. (1997). *تاريخ الرومان* (المجلد ط1). (د.م.ن): مكتبة ومطبعة الغد.

-طويل توفيق. (د.ت). *كفاح روما و قرطاجة.* القاهرة: دار نشر الحديث.

-عبد الله محمود. (2010). *أشهر وأخطر الجاسوسات عبر العصور* (المجلد ط1). دمشق: دار الكتاب العربي.

-عبودي هنري.1991. *معجم الحضارات السامية.*ط2. لبنان. جروس برس.

-العسلي بسام. (1980). *هانيبال.* لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

-عقون محمد العربي. (2010). "ماسينيسا من استعادة حقه في العرش إلى بناء الوحدة النوميدية 238-148ق م". *مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية* . (ص83-104)

-فرحاتي فتيحة. (2007). *نوميديا من حكم الملك غايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213-46ق.م.* متيجة، الجزائر: منشورات أبيك.

-فنطر محمد الحسين. (1999). *الحرف والصورة في عالم قرطاج.* د.م.ن: أليف المنشورات البحر الأبيض المتوسط .

-كاشف جمال. (د.ت). *أخطر الجواسيس عبر التاريخ* . القاهرة: دار الطلائع.

-أكصيل أصطيفان. (2007). *تاريخ شمال افريقيا القديم* (الإصدار ج3). (محمد التازي سعود، المترجمون) الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.

-لام أرولد. (1962). *هانيبال*. (رشدي السيسي، المترجمون) د.م.ن: دار الفكر العربي.

-مرزوق سايح أحمد. (2017)."حنبعل وإنتصاراته الأربعة في إيطاليا 218-216ق.م خلال الحرب البونية الثانية"، *مجلة الحكمة للدراسات التاريخية*. مج 05.العدد 12. (ص84-98)

-مسرحي جمال.2019."من رموز التلاحم والوحدة في تاريخ الجزائر القديم الملك سيفاكس 202ق.م أنموذجا". *منشورات مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية* مج1 العدد 06.

-نصر صلاح. (د.ت). *الحرب الخفية فلسفة الجاسوسية ومقاومتها* (المجلد ط2). دار الوطن العربي للنشر والتوزيع.

-هارت ليدل.1931. *حروب التاريخ الحاسمة دراسة في فن الإستراتيجية*. ط1. القاهرة. المطبعة الأميرية.

-وولفغانغ كريغر. (د.ت). *تاريخ المخابرات من الفراعنة حتى وكالة الأمن القومي الأمريكية*. (عدنان عباس علي، المترجمون) الكويت: مجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

-Adrian Goldsworthy (2000). *The Punic Wars*. London. Cassell & Co.

-Bath, T. (1981). *Hannibal's Campaigns.* England: British Library.

-Dvornik, F. (1893). *Origins of Intelligence Services.* USA: Rutgers University Press.

-Freeman, P. (2022). *Hannibal Rome's Greatest Enemy.* New York: Pegasus Books.

-Hendrikus, A. (2020). *Rome And The Near Eastern Kingdoms And Princpalities44-31 B.C. A Study Of. Political Relations During Civil War.* Van Wijlick. Publishing.Brill.

-L. O'Connell, R. (2005). *The Ghosts Of Cannae Hannibal and the Darkest Hour of the Roman Republic.* New York: Random House.

-Lacroix. *Histoire de La Numidie et de La Mauritanie de Puis Les Temps Les Plus Ancien jusqu'à L'arrivée Des Vandales En Afrique.*Paris, L'Université Rolin.

-Livry. (2006). *Hannubals War.* (C. J, Trans.) United Kingdom: Oxford University.

-Mirbahmanyar. *Zama202b.c Scipio Crushes Hannibal in North Africa* (Vol. First Publish). Britani: Osparey, britani,bublishing,.

-Mommsen. (1865). *Histoire Romani,Trad.Alexander.* (Alexandar, Trad.) Paris: librairieA.Franck.

-Nje, A., & N.B, R. (1995). *Exploration of Military and political intelligence in the Oman world from the Second Punic War to the battle of Adrianople.*New York: Routledge.Taylor & Francis Group.

-Polybe. (1970, XIV). *Histoire.* (d. Roussel, Trad.) Paris: Gallimard de la Pleid.

-PRivas, J. (2001). *Hannibal Crosses The Alps The Invasion oF Italy And The Punic Wars.* U.S.A: Da CApoPress.

-Rosenstein, N. (2021). *Roma and the Méditerranean 290 to 146 B.C.* Britain: Edinburgh University Press.

-Tite, L. *History of The Roman ،Trad: Frankgrpent i, XXIV.* (Frankgrpenti, Trans.) Universite Colompa.